

See discussions, stats, and author profiles for this publication at: <https://www.researchgate.net/publication/39020421>

الإسلام والعلم في القرآن والسنة

Article · January 1996

Source: OAI

CITATIONS

0

READS

1,188

1 author:



شرف محمود القضاة
University of Jordan

66 PUBLICATIONS 0 CITATIONS

SEE PROFILE

الإسلام والعلم في القرآن والسنة

الأستاذ الدكتور شرف القضاة

كلية الشريعة - الجامعة الأردنية

عمان - الأردن

dsharaf951@yahoo.com

حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية

جامعة قطر

العدد الرابع عشر

١٤١٧هـ / ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

وأفضل الصلاة وأتم التسليم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد؛

فقد شهد التاريخ الإنساني تصورات وعلاقات شتى حول موضوع الدين والعلم، وقد نشأت هذه التصورات والعلاقات المتعددة من تعدد الأديان، ومن مواقف بعض رجال الدين وعلمائه من العلم، كما نشأت من تعدد الفلسفات البشرية، وتطورها، ومن تدرج الاكتشافات العلمية وتطورها كذلك، ومن نظرة بعض رجال الفلسفة والعلوم التجريبية للدين بوجه عام، من خلال الدين الذي يدين به، أو يعرفه، أو يعرف بعض المعلومات الصحيحة أو المغلوطة عنه، ومعلوم أن العلاقة بين الدين في أوروبا وبين العلم قد تأزمت، وأدت إلى فصل الدين عن الحياة، ومعلوم أيضاً أن التاريخ الإسلامي لم يشهد مثل هذه الأزمة وأن العلوم ازدهرت في ظل الإسلام ازدهارا لم يسبق له مثيل.

ولكن العالم الإسلامي قد شهد في القرون الأخيرة استيرادا للأزمة التي نشأت في أوروبا، من باب تقليد الضعيف ماديا للقوي المتقدم صناعيا وعسكريا واقتصاديا وسياسيا.

وهكذا أصبحت العلاقة بين الدين والعلم موضوعا يثار ويناقش على مستوى عالمي.

ولا شك أن ذلك انعكس بشكل واضح على الإنسان أينما كان، على عقيدته وفكره، وعلى أهدافه ووسائله، وعلى سلوكه وأخلاقه، وانعكس على الدول في أهدافها، وسياساتها، وقوانينها وعلاقاتها، لقد انعكس ذلك سلبيا على البشرية بكل جوانب حياتها، ذلك لأن العلم وسيلة يمكن استخدامه في الخير أو الشر، والدين هو الذي يحدد كيف تستخدم المعرفة والمعلومات في مجتمع من المجتمعات، فإن كان الدين أو الثقافة إنسانية إيجابية متوازنة وجهت العلم إلى خير البشرية، وإن كانت ثقافة الأمة عنصرية أو إقليمية أو مادية أو غير متوازنة وجهت العلم إلى تحقيق مصلحة ذاتية للأمة على حساب الأمم والشعوب الأخرى، ولا شك أن سعادة البشرية تكمن في إعادة الربط بشكل صحيح بين الجانبين الروحي والمادي للحياة البشرية.

وقد أردت في هذا البحث المساهمة المتواضعة في هذا المجال مكثفيا بالحديث عن الدين الإسلامي والعلم كما ورد ذلك في القرآن والسنة.

ولم أتعرض للأديان الأخرى، لأن ذلك يحتاج إلى تخصص في الأديان الأخرى، ولأن البحث لا يتسع لمثل ذلك.

وكذلك لم أتعرض لجهود علماء المسلمين وإنجازاتهم بعد العصر النبوي لأن ذلك يحتاج إلى بحث مستقل في كل تخصص من التخصصات.

كما أنني لم أرد أن أذكر جميع الآيات والأحاديث الواردة في هذا الموضوع فهي بالمئات، ولا يتسع لها هذا البحث، وإنما ذكرت أمثلة منها تكفي للدلالة على ما أريد.

أولاً: مكانة العلم والعلماء

حينما نستعرض الآيات والأحاديث التي تذكر منزلة العلم والعلماء نجدها تذكر العلم بمعناه الشامل شمول الإسلام^١، وتذكر المعرفة بكافة تخصصاتها، ولا تجعل الدين هو وحده العلم، بل تعتبر الدين جزءاً من العلم^٢.

فعن العلم بمعناه الشامل، وعن العلماء في التخصصات المختلفة نقراً قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَابِيْبٌ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾^٣.

ذكر الله في هاتين الآيتين الأمطار والنباتات والجمال والناس والدواب، ثم أتبع ذلك بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فلا شك أن العلم بهذه التخصصات داخل في العلم بالمعنى الإسلامي.

وكذلك نجد أن أول آيات نزلت في القرآن الكريم تذكر العلم بمعناه الشامل، وهي قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^٤.

فقد تحدثت هذه الآيات عن العلم بشكل عام، وذكرت العلم بخلق الإنسان وهو جنين في بطن أمه، كما أننا نلاحظ أن القرآن يسمي الدين علماً^٥، لأنه حقيقة علم من العلوم الكثيرة، قال تعالى مخاطباً الرسول ﷺ ﴿وَلْيَنبَغِ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^٦.

^١ ندوة ضرورة تحرير الجامعات من رواسب التبعية، الدكتور أحمد العسال، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ط١، ١٩٧٦م،

^٢ الحقيقة بين العلم والدين، عبد الرحمن حبنكه الميداني، ندوة المحاضرات لعام ١٣٩٤هـ، رابطة العالم الإسلامي.

^٣ سورة فاطر ٢٧، ٢٨.

^٤ سورة العلق ١-٥.

^٥ مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، مكتبة الرسالة ١٩٨٣م.

^٦ سورة البقرة ١٤٥.

والمراد بالعلم هنا ما أنزل الله إليه من تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام وهي قضية دينية بحثة.

وقال تعالى ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^٧.

فالعلم هنا هو العلم بالدين وتفسير آيات القرآن الكريم.

ولقد جعل الإسلام للعلم والعلماء منزلة عالية جدا لا تكاد تبلغها منزلة، وإليك أهم ما يدل على هذه المنزلة العالية:

١. العلم ركن الإيمان.

فالإيمان لا يصح إلا بالعلم اليقيني الجازم بكل معلوم من الدين بالضرورة، قال تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^٨. قال البخاري^٩: فبدأ بالعلم.

ولمّا للإيمان - الذي لا يصح إلا بالعلم - من أهمية كانت الفترة المكية البالغة حوالي ثلاثة عشر عاما مكرسة للعقيدة بشكل رئيسي، وكانت التشريعات فيها قليلة، فلما رسخ هذا الجانب العقدي جاءت الفترة المدنية بتشريعاتها المفصلة.

٢. العلم عبادة.

بل هو فريضة، بل إنه أول فريضة في الإسلام^{١٠}، فقد جاء الأمر بالقراءة في الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وهن أول ما نزل من القرآن، وتكرر هذا الأمر في هذه الآيات مرتين.

ولا شك أن القراءة كانت ولا تزال أوسع وأعمق أدوات التعلم أثراً في حياة الإنسان، ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن، ونعرفه في حياة البشرية، ولكن الله سبحانه كان يعلم ذلك، هذا مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي نزلت عليه هذه الآيات لم يكن قارئاً ولا كاتباً بالقلم^{١١}.

^٧ سورة آل عمران ٧.

^٨ سورة محمد ١٩.

^٩ الجامع الصحيح للبخاري وبهامشه فتح الباري ١/١٥٩، دار المعرفة، بيروت.

^{١٠} موقف الإسلام من الأمية، د. محمد خير عرقسوسي، ندوة المحاضرات لعام ١٣٨٩هـ، رابطة العالم الإسلامي.

^{١١} في ظلال القرآن، سيد قطب ٢٠٢/٣٠، دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٧م.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم) ^{١٢}.

٣. نِكْرُ الْعِلْمِ وَمَشْتَقَاتِهِ.

ذكر العلم ومشتقاته (٨٦٥) مرة في القرآن الكريم، ومئات المرات في الأحاديث النبوية. وبعضها يذكر منزلة عالية للعلم والعلماء.

فمن الآيات:

- أ- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ^{١٣}.
- ب- ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ ^{١٤}.
- ت- ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ^{١٥}.
- ث- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ...﴾ ^{١٦}.

قال الغزالي فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه، وثنى بالملائكة، وثالث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلاءً ونبلاً ^{١٧}.

وأما من الأحاديث الصحيحة:

- أ- عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين...) ^{١٨}.
- ب- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (...ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة...) ^{١٩}.

^{١٢} السنن لابن ماجة. رقم الحديث ٢٢٤، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، عيسى الحلبي، وهو حديث حسن بمجموع طرقه.

^{١٣} سورة الزمر ٩.

^{١٤} سورة المجادلة ١١.

^{١٥} سورة البقرة ٢٦٩.

^{١٦} سورة آل عمران ١٨.

^{١٧} إحياء علوم الدين للغزالي ٥/١، دار الرشد الحديثة، المغرب.

^{١٨} صحيح البخاري رقم ٧١، وصحيح مسلم رقم ١٠٣٧، عيسى الحلبي، ١٩٥٥م.

^{١٩} صحيح مسلم رقم ٢٦٩٩.

ت- عن أبي أمامة الباهلي قال: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان: أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل العالم على العابد كفضلي على أذنكم، ثم قال: إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير) ^{٢٠}.

ث- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (...العلماء ورثة الأنبياء..) ^{٢١}.

٤ . القسم بالعلم وأدواته في القرآن الكريم.

قال تعالى ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ^{٢٢}، فقد ابتدأت السورة بأحد الحروف التي تستعمل في الكلمات كتابة ونطقاً، ثم أقسم الله بالقلم الذي يكتب به الناس العلوم والمعارف، تنبيهاً لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تُتال العلوم، ثم عطف (وما يسطرون) أي ما يكتبون، فهو قسم بالعلم الذي تُسطرهُ الأقلام، وحسبك بهذا دليلاً على شرف القلم، ومنزلة العلم وأهله ^{٢٣}.

٥ . أن العلم والحكمة صفتان من صفات الله تعالى.

فهو سبحانه العليم الحكيم، كما في كثير من آيات القرآن الكريم، ولا شك أن في هذا رفعا لمنزلة العلم والعلماء ^{٢٤}.

^{٢٠} الجامع للترمذي رقم ٢٨٢٦، وقال: حديث حسن صحيح، دار الفكر، ١٩٨٠م.

^{٢١} السنن لأبي داود ٢٨٥/١، مصطفى الحلبي، ١٩٥٢م، والجامع للترمذي رقم ٢٨٢٣، والسنن لابن ماجه رقم ٢٢٣، وصحيح ابن حبان، انظر موارد الظمان رقم ٨٠، دار الكتب العلمية، وهو حديث حسن، قال ابن حجر: له شواهد يتقوى بها، انظر فتح الباري ١/١٦٠، دار المعرفة.

^{٢٢} سورة القلم ١.

^{٢٣} تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٩م.

^{٢٤} الفكر العلمي الإسلامي وإسهامات المسلمين م. رضي الدين حقي، مجلة الفكر الإسلامي والإبداع العلمي، م٢، عدد ٤.

٦. أن أجر العلم يستمر حتى بعد الموت.

وما ذلك إلا لمنزلته العالية، وأهميته في المجتمع، وآثاره الطيبة في الناس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) ^{٢٥}.

٧. الأمر بالاستزادة من العلم.

فإن الله أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم - على علمه وفضله ومنزلته العالية وكرامته على الله - أن يطلب المزيد من العلم، قال تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ^{٢٦}.
هذا كله جانب من منزلة العلم والعلماء في الإسلام، فهل أعطى دين أو ثقافة للعلم هذه المنزلة الرفيعة!!!.

^{٢٥} صحيح مسلم رقم ١٦٣١.

^{٢٦} سورة طه ١١٤.

ثانياً: مصادر العلم^{٢٧}

لقد ضيقت البشرية قروناً طويلة من تاريخها في الجدل والاختلاف حول مصادر العلم، وليس ما جرى في أوروبا بين العلم والكنيسة إلا مثالا على ما حدث في التاريخ البشري، ولا زالت البشرية حتى الآن تحاول الوصول إلى حل صحيح في هذا المجال، ولا زالت المجتمعات تعاني من الاضطراب في مصادر العلم.

فقد عاش الناس في ظل الفلسفة اليونانية حياة لا تكاد تعتمد إلا على مصدر واحد للعلم وهو التأمل العقلي، وتجاهلوا الدين والملاحظة والتجربة تجاهلاً شبيه تام^{٢٨}.

وعاش الناس في أوروبا حياة لا تكاد تعتمد إلا على مصدر واحد للعلم وهو الكتاب المقدس - رغم ما فيه من تحريفات وشوائب وأباطيل، كما اعترف بذلك المجمع المسكوني الثاني للفايتين عام ١٩٦٢-١٩٦٥م كما ذكر موريس بوكاي^{٢٩} - ومعتدين كذلك على شروحات الكتاب المقدس، وهي شروحات بشرية تصيب وتخطئ، متجاهلين بذلك تجاهلاً تاماً العقل، والدين الإسلامي، والاكتشافات العلمية المتتالية، ومعلوم كم عانى العلماء من اضطهاد الكنيسة، وكم قتل منهم لأنهم خالفوا آراء الكنيسة.

ويعيش الناس اليوم في ظل التقدم العلمي التجريبي، والاكتشافات الحديثة، حتى أصبح كثير من الناس يظنون أنهم لم يعودوا بحاجة إلى الإيمان بالله، لأنهم يستطيعون تفسير الكون دون اللجوء إلى الإله كما يقول وحيد الدين خان^{٣٠}.

أما الإسلام فقد أخذ بمصادر العلم الثلاثة، واعتبرها مكملة لبعضها، ووازن بينها فهي مصادر متكاملة غير متعارضة، وليس في أي منها ما يغني عن غيره، ولا تتقدم الحياة روحياً ومادياً إلا بالأخذ بكل هذه المصادر بشكل متكامل.

ولذلك لم تشهد الحياة في ظل الإسلام إنكاراً لبعض هذه المصادر، وإن كانت قد شهدت خروج أفراد أو مجموعات عن التوازن في الأخذ منها، ولكن ذلك لم يصل إلى حد إنكار مصدر منها، أو تجاهله تجاهلاً تاماً أو شبه تام.

^{٢٧} أريد بمصادر العلم الطرق التي يتم اكتسابه من خلالها.

^{٢٨} الفكر العلمي، م. رضي الدين حقي.

^{٢٩} دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاي/٥٩، دار المعارف.

^{٣٠} الدين في مواجهة العلم، وحيد الدين خان/٦٢، دار الاعتصام، ١٩٧٢م.

ومصادر العلم والمعرفة في الإسلام ثلاثة هي: الحس، والعقل، والخبر الصادق^{٣١}، وقد ذكرت في القرآن والسنة كثيرا جدا، وقد ذكرت مجتمعة في آيات متعددة كقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^{٣٢}.

فهذه الآية تتحدث عن العلم، وأن الإنسان يولد وليس عنده أية معلومات، ثم تذكر الآية مصادر التعلم، وهي:

١. السمع (والمقصود به الخبر الصادق) فيتعلم من خلال ما يسمعه من معلومات لم يراها ولكن رآها غيره، وانتقل خبرها إليه، ويدخل في ذلك الوحي، فالمعلومات تنتقل إلى الإنسان من خلال رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

٢. البصر، ويدخل في هذا الملاحظات التي يراها الإنسان العادي، أو التي يراها العالم فيضع لها الفرضيات، ثم يبدأ بفحص هذه الفرضيات من خلال إجراء التجارب وملاحظة النتائج للخروج بنظريات أو حقائق علمية.

٣. الفؤاد ويطلق أول ما يطلق على العقل، فإن العقل يستطيع معرفة بعض المعلومات دون أن يراها أو يسمعه من أحد، مستنتجا ذلك من مقدمات حسية أو خبرية، ولقد بين علماءنا أن المعلومات العقلية مستفادة من الحواس، فمن فقدَ حسا فقدَ علما^{٣٣}.

وقد جاء ذلك في القرآن الكريم حيث ربط بين الحواس والعقل فقال تعالى ﴿صُمِّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^{٣٤}، وكقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^{٣٥}.

فقد ربط بين الحواس والعقل والعلم.

^{٣١} الحقيقة بين العلم والدين، عبد الرحمن حبنكة الميداني.

^{٣٢} سورة النحل ٧٨.

^{٣٣} المنهج العلمي في الإسلام، د. أحمد سعيدان، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، ١٩٨٥م، والأسس الحضارية للطريقة العلمية، د. يوسف علي، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية ١٩٨٥م.

^{٣٤} سورة البقرة ١٧١.

^{٣٥} سورة الإسراء ٣٦.

محدودية مصادر العلم:

إن المعلومات التي وصلتنا من خلال هذه المصادر محدودة، ولا نجد فيها مجتمعة أو متفرقة كل ما نريد أن نعرفه، ذلك لأن ما نريد أن نعرفه لا حدود له، وأما ما وصلنا عن طريق الوحي فهو محدود، وما علمناه من خلال حواسنا محدود أيضاً، وما نستطيع عقولنا أن تدركه محدود كذلك، ولذلك فلن يصل الإنسان مهما زادت علومه ومعارفه إلى كل المعلومات، ولا يدرك ذلك إلا من حاول الغوص في أي تخصص، فإن الإنسان كلما ازدادت معلوماته ازداد إحساساً بجهله، لأن الوصول إلى معلومات جديدة يثير أسئلة جديدة أكثر من المعرفة التي حصل عليها، وهكذا يبقى الإنسان في بحث دائم عن العلم.

هذه المحدودية التي يدركها العلماء اليوم لم تكن معروفة قبل قرون قليلة، فقد كان فرنسيس بيكون الذي اعتبر فيلسوف الفكر التجريبي يظن - في القرن السابع عشر - أن البشرية تحتاج إلى مائة أو مائتين من التجارب حتى تصل إلى كل الحقائق، ويعرف كل شيء وينتهي الأمر، أما المسلمون فقد كانوا يقرؤون في القرآن الكريم قبل ذلك بأكثر من عشرة قرون قوله تعالى ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^{٣٦}، وهل حقائق العلم إلا من كلمات الله؟^{٣٧}.

وقوله تعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^{٣٨}.

وقوله تعالى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^{٣٩}.

وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^{٤٠}.

وقوله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾^{٤١}.

لقد أدرك العلماء هذا في القرن العشرين، قرن التقدم العلمي الهائل، هذا التقدم الذي جعل العلماء يشعرون بقلّة ما يعلمون بالنسبة إلى ما يجهلون.

حتى إن أحدهم وهو سوليفان ألف كتاباً سماه (حدود العلم) أعلن فيه أن العلم لا يقدم لنا سوى معرفة جزئية عن الحقيقة.

^{٣٦} سورة الكهف ١٠٩.

^{٣٧} المنهج العلمي في الإسلام، د. أحمد سعيدان.

^{٣٨} سورة الإسراء ٨٥.

^{٣٩} سورة يوسف ٧٦.

^{٤٠} سورة البقرة ٢٣٢.

^{٤١} سورة البقرة ٢٥٥.

يقول وحيد الدين خان: لقد فقد العلم يقينه السابق بدخوله أبواب القرن العشرين الواسعة، فكبار العلماء يصرون الآن على أن العلم لا يعطينا إلا معرفة جزئية عن الحقيقة، لقد سلم العلماء على أعلى مستوى اليوم بأن الزعم بأننا نستطيع أن نشاهد الأشياء في صورها النهائية لم يكن إلا وهما وسراباً^{٤٢}.

إن آفة الطريقة التجريبية أنها تعتمد على الحواس وعلى أدوات القياس، والنتائج تتغير بتغير وسائل القياس، وتزداد قرباً من الحقيقة كلما تحسنت هذه الوسائل، وهذا يعني أن حقائق العلم ليست مطلقة، وإنما هي متطورة، تقارب الحقيقة المطلقة، ولا تلاقيها^{٤٣}، كما أن التقدم العلمي محصور في تفسير ظواهر الكون المرئية والمحسوسة دون أن يستطيع العلم التأثير في حقيقتها وكيانها وتغيير قوانين الكون^{٤٤}.

^{٤٢} الدين في مواجهة العلم ٦٨ - ٧١.

^{٤٣} المنهج العلمي في الإسلام، د.احمد سعيدان.

^{٤٤} طرق تدريس التربية الإسلامية، د.محمد الزحيلي، دار المعارف، ١٩٩٠م.

ثالثاً: أهداف العلم وثمراته

نجد في القرآن الكريم والسنة المطهرة أهدافا للعلم أرحب وأوسع أفقا من الأهداف التي تضعها المجتمعات اللادينية، والمجتمعات المتدنية بأديان أخرى، ومن أهم هذه الأهداف:

١. الاستخلاف^{٤٥}.

فقد أراد الله تعالى أن يجعل في الأرض خليفة، وأعطاه حرية الاختيار، والقدرة على التصرف في هذا الكون، امتحانا له.

يقول سيد قطب: ^{٤٦}.

"أراد الله أن يسلم لهذا الإنسان زمام الأرض، ويطلق فيها يده، ويكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل، والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله بإذن الله في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه.

وقد وهب الله للإنسان من الطاقات الكامنة والاستعدادات المنخورة كفاء ما في الأرض من قوى وطاقات". (بتصرف).

ويقول الغزالي: تعليم العلم من وجه عبادة الله، ومن وجه خلافة الله تعالى^{٤٧}.

وقد زود الله الإنسان بالعلم ليكون قادرا على هذه الخلافة قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً... وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾^{٤٨}.

وهكذا جعل الله آدم خليفة في الأرض يعمرها ويدير شؤونها وزوده بالعلم اللازم لذلك.

٢. الإيمان بالله تعالى، وخشيته.

فقد قرر القرآن الكريم أن العلم هو طريق الإيمان، وأن الكفر جهل وغفلة عن الحقائق. قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^{٤٩}.

^{٤٥} مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل.

^{٤٦} في ظلال القرآن ١/٦٦.

^{٤٧} إحياء علوم الدين ١/١٣.

^{٤٨} سورة البقرة ٣٠، ٣١.

وقال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ أَوْثَرُ الْعِلْمِ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنْتَلَى عَلَيْهِمْ يَخْرُونَ لَلَّذِقَانِ سُجْدًا.. وَيَرِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾^{٥٠}.

وقال تعالى ﴿سُنُرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^{٥١}.

فالعلم بآيات الله في الكون وفي الإنسان يوصل الإنسان إلى الحق..

وحينما ذكر الله تعالى أطوار خلق الجنين في بطن أمه أتبعها بالتذكير بالله فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْقَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^{٥٢}، وليس معنى هذا أن كل من علم الحق وعرفه آمن به، فإن الإرادة الإنسانية تبقى طليقة، ولذلك أنكر الله تعالى على الذين يعرفون الحق ولا يؤمنون به فقال تعالى ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^{٥٣}.

وقال تعالى ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^{٥٤}.

وقال سبحانه وتعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^{٥٥}.

فالعلم طريق إلى الإيمان بالله، دالٌّ على الحق، ولكنه لا يجبر الإنسان على الإيمان ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾^{٥٦}.

٣. الالتزام بطاعة الله تعالى، وعمل ما يرضيه، واجتناب ما يسخطه، لتحقيق سعادة الآخرة، والفوز برضوانه وجناته.

قال الغزالي متحدثاً عن العلم: فهو وسيلة للجنة، ولا يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال^{٥٧}.

^{٤٩} سورة فاطر ٢٨.

^{٥٠} سورة الإسراء ١٠٧-١٠٩.

^{٥١} سورة فصلت ٥٣.

^{٥٢} سورة المؤمنون ١٢-١٤.

^{٥٣} سورة البقرة ٤٢.

^{٥٤} سورة البقرة ١٤٦.

^{٥٥} سورة النمل ١٤.

^{٥٦} سورة الأنفال ٤٢.

^{٥٧} إحياء علوم الدين ١٢/١.

وقد بينت كثير من الآيات هذه الثمرة للعلم ومنها قوله تعالى ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^{٥٨}، فالاستقامة سبيل الذين يعلمون، وعدم الاستقامة سبيل الذين لا يعلمون. وقال تعالى ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^{٥٩}، فعبادة الله وتقواه ثمرة من ثمرات العلم.

وقال سبحانه وتعالى محذراً الذين يعلمون من مخالفة أمر الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^{٦٠}.

وكما أن العلم لا يجبر على الإيمان فإنه لا يجبر على الطاعة والاستقامة، ولذلك وصف الله بأشد الأوصاف الذين يعلمون ولا يستفيدون من علمهم للوصول إلى سعادة الآخرة.

قال تعالى ﴿وَأَنْزَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ..﴾^{٦١}، فهذا مثل العالم الذي ينسلخ سلوكيا مما أعطاه الله من علم.

وقال تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^{٦٢}، فهذا مثل كل من حمل العلم نظرياً، ولم يطبقه على نفسه عملياً، والآية وإن كانت في اليهود إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وفي الحديث الصحيح عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتتدلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت أمركم بالمعروف ولا آتيته، وأنهاكم عن المنكر وآتيته)^{٦٣}.

فهذا الرجل كان على علم، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه لم يكن ملتزماً بذلك في نفسه.

^{٥٨} سورة يونس ٨٩.

^{٥٩} سورة العنكبوت ١٦.

^{٦٠} سورة الأنفال ٢٧.

^{٦١} سورة الأعراف ١٧٥-١٧٦.

^{٦٢} سورة الجمعة ٥.

^{٦٣} صحيح البخاري رقم ٣٢٦٧.

٤. لذة المعرفة، فالعلم نعمة عظيمة بحد ذاتها، وهو نور يملأ عقل الإنسان وقلبه وكيانه، وفيه من السعادة الداخلية ما لا يخفى ولا ينكر، وفيه تحقيق لإنسانية الإنسان تميزه عن غيره من المخلوقات، يقول الغزالي: العلم مطلوب لذاته فهو لذيد^{٦٤}. إنها سعادة المعرفة.

ولذلك امتن الله على الناس بالعلم وعده نعمة عظيمة، وجعل للعلماء منزلة رفيعة كما سبق، قال تعالى ذاكرا بعض نعمه على عيسى صلى الله عليه وسلم ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ...﴾^{٦٥}.

وقال سبحانه مبيناً جانباً من فضله تعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^{٦٦}.

وقال سبحانه مبيناً جانباً من رحمته بالإنسان ونعمه عليه ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^{٦٧}.

وقال سبحانه ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^{٦٨}.

٥. سعادة البشرية في الحياة الدنيا.

فبالعلم يتغلبون على كثير من المشكلات من حولهم، وبالعلم تنتظم أمور حياتهم، وبالعلم يتدرجون في مدارج التقدم، هذا إذا أخذوا العلم بمعناه الشامل الذي يشمل الدين الحق، وأما الأخذ بالعلم المادي فقط فإنه يورد البشرية موارد الهلاك والشقاء، والأمراض النفسية، والانتحار، وتفكك الأسرة، وانتشار الإدمان، وازدياد الجرائم، وتدمير الشعوب، واستعبادها، واستغلالها، وانهيار القيم الإنسانية، وموت الملايين في الحروب، والمجاعات، وتبيداً لثروات العالم على حساب الأجيال القادمة، وتلويث البيئة، إلى غير ذلك من المشكلات، وليس هذا البحث مجالاً مناسباً لذكر الأرقام والإحصاءات الكثيرة المتعلقة بهذا الموضوع.

^{٦٤} إحياء علوم الدين ١/١٢.

^{٦٥} سورة المائدة ١١٠.

^{٦٦} سورة النساء ١١٣.

^{٦٧} سورة الرحمن ١-٤.

^{٦٨} سورة العلق ٤-٥.

ولعل من أحسن من كتب في موضوع خسارة البشرية بالابتعاد عن الدين الحق هو أبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) وبخاصة في الفصل الثالث بعنوان (أوروبا إلى الانتحار) وقد نقل عن بعض علماء أوروبا رأيهم في هذا المجال مثل (جود) الانجليزي الذي يقول: إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش، ويقول الكسيس كارل: إن الأمم التي ازدهرت فيها الحضارة الصناعية وبلغت أوجها تسير سيرا حثيثاً إلى الهمجية ولكنها لا تدرك ذلك، إن علمنا بالحياة وكيف يجب أن يعيش الإنسان متأخر جدا عن علمنا بالماديات، وهذا التأخر هو الذي جنى علينا^{٦٩}.

أما في ظل تكامل الدين الحق مع العلم التجريبي فإن الثمرة هي سعادة البشرية، ولقد تحقق ذلك قرونا طويلة في ظل الإسلام، وإن العالم اليوم بحاجة إلى الحضارة الإسلامية لتخلصه من دمار محقق.

ففي الإسلام كل ما في الكون مسخر لسعادة الإنسان ولكنه يقرب هذا التسخير بالإيمان بالله واتباع منهجه قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^{٧٠}. وانظر الآيات بعدها حتى آخر السورة.

وقال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^{٧١}.

فيذكر سبحانه الرسالات والكتب والدين الذي تقوم به العدالة، ثم في الآية نفسها يذكر القوة المادية المتمثلة في الحديد وصناعته وتسخيره في نصرة الحق، وهكذا يكون التكامل، وهكذا تسعد البشرية وتسود العدالة.

وعلى سبيل المثال كم خسرت البشرية وشقيت بالخمور وأضرارها الصحية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، لأنها تنكبت الإسلام في حكم الخمر.

وكم شقيت البشرية بالأمراض الجنسية كالسفلس والإيدز لأنها لم تلتزم بأوامر الله في العلاقات الجنسية.

^{٦٩} ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٣٦، دار القلم، ١٩٧٤م.

^{٧٠} سورة لقمان ٢٠-٢١.

^{٧١} سورة الحديد ٢٥.

وكم شقيت بالاستعمار والحروب العالمية لأنها خرجت على شرع الله في العلاقات الدولية،
وكم عانت من انهيار لاقتصاديات الدول الشيوعية مثلاً، ومن دورات الركود الاقتصادي في
الغرب، ومن مجاعات في العالم الثالث لأنها انحرفت عن دين الله في الاقتصاد، وتجاهلت فطرة
الله التي فطر الناس عليها، واعتمدت الربا والاحتكار، وهكذا في كل جوانب الحياة.

رابعاً: المنهج العلمي

إن لكل علم منهجه وطريقته، بل إن لكل عالم أو باحث منهجه وطريقته، غير أن هذه المناهج والطرق رغم اختلافها في كثير من التفاصيل تتفق في خطوطها العريضة، وهذه الخطوط العريضة هي التي سنعرض لها هنا ^{٧٢}.

إن كثيراً من الغربيين يذهبون إلى أن المنهج العلمي وضعه الإغريق بوضع المنهج الاستنتاجي، ثم اكتمل في الغرب بالمنهج التجريبي الذي وضعه - كما يقولون - روجر بيكون، ثم تبناه فرنسيس بيكون ^{٧٣}.

وهم في كل ذلك لا يشيرون إلى الإسلام وعلمائه لا من قريب ولا من بعيد، إلا أن بعضهم لا يتجاهل دور الإسلام، ويجاهر بالحقيقة ولا يكتمها، ومن هؤلاء لويس برنارد أستاذ التاريخ في جامعة لندن حيث يقول ^{٧٤}: إن أوروبا تحمل دينا مزدوجا للعرب:

١. فقد حافظوا على الميراث الفكري والعلمي الذي خلفه اليونان وتوسعوا فيه، ونقلوه إلى أوروبا.

٢. وتعلمت أوروبا من العرب طريقة جديدة للبحث، وكان لهذين الأمرين الفضل الكبير في القضاء على العصور الوسطى والإيذان بعصر النهضة في أوروبا.

ويقول بريفولت: إن الدراسات العلمية انبثقت عن مدينة المسلمين بلا شك ^{٧٥}.

بل إن روجر بيكون يعترف بذلك قائلاً (إني لأعجب ممن يريد أن يبحث في المعرفة وهو لا يعرف العربية) ^{٧٦}.

نعم إن العربية كانت لقرون طويلة هي لغة العلم في العالم.

^{٧٢} المنهج العلمي في الإسلام، د. أحمد سعيدان.

^{٧٣} المنهج العلمي في الإسلام، د. أحمد سعيدان.

^{٧٤} الأسس الحضارية للطريقة العلمية، د. يوسف علي.

^{٧٥} الأسس الحضارية للطريقة العلمية، د. يوسف علي.

^{٧٦} الأسس الحضارية للطريقة العلمية، د. يوسف علي.

ويمكننا أن نجمل المنهج العلمي في القرآن والسنة فيما يلي:

١. الحث على العلم تعلمًا وتعليمًا، وذلك من خلال:

أ- إلزامية التعليم، وجعله عبادة بل فريضة، أما قبل الإسلام فقد كان أحيانًا خاصًا بطبقة معينة، وربما يعاقب من يحاول التعلم، ثم أصبح الآن حقًا أساسيًا لكل إنسان، ولكن الإسلام جعله ليس فقط حقًا بل واجبًا دينيًا لأول مرة في التاريخ^{٧٧}، كما ذكرت سابقًا.

واعتباره عبادة يؤجر عليها الإنسان لا يكون إلا بشرطين، أولهما: التفكير في الخالق.

وثانيهما: استخدامه في الخير وما ينفع الناس^{٧٨}، بالإضافة إلى نية التعبد.

ب- المنزلة العالية للعلم والعلماء كما ذكرت سابقًا.

ت- مجانية التعليم^{٧٩}، قال تعالى ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾^{٨٠}.

وقال تعالى ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^{٨١}، على لسان نوح، وهود وصالح ولوط وشعيب وهكذا كان كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ث- محو الأمية^{٨٢} عن طريق الدولة، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة الثانية للهجرة بصفته رئيسًا للدولة، فعن ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة^{٨٣}.

ولعل هذا هو أول مرة في التاريخ الإنساني كله تقوم دولة بعمل منظم لمحو الأمية، وقد كان ذلك على نفقة الدولة بدلًا عن المبلغ المطلوب للفداء من الأسر، وقد طلب من الأسير الذي يتقن الكتابة والقراءة تعليم عشرة من أولاد الأنصار.

^{٧٧} الفكر الإسلامي، م. رضي الدين حقي.

^{٧٨} تعريف عام بدين الإسلام للشيخ على الطنطاوي ٩٣، ط ١٣، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م.

^{٧٩} موقف الإسلام من الأمية، د. محمد خير عرقسوسي.

^{٨٠} سورة الفرقان ٥٧.

^{٨١} سورة الشعراء ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

^{٨٢} موقف الإسلام من الأمية، د. محمد خير عرقسوسي.

^{٨٣} المسند للإمام أحمد بن حنبل ٢٤٧/١، دار الفكر، وصححه أحمد شاكر، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

٢. الأمر بالتفكير في الكون.

والنظر في سمائه وأرضه وكل ما فيه من آيات، والتفكير في الإنسان والكائنات الحية من حوله، فالعلم المادي حتى الآن ينحصر في التفكير في وصف ما يحدث، وما هي قوانين ذلك، ولكنه لا يتعدى ذلك إلى الجواب عن السؤال: لماذا يحدث هكذا وليس بشكل آخر؟ أو لماذا كان القانون هكذا لا غير؟ وكمثال على ذلك فإن العلم يقول إن بعد الأرض عن الشمس حوالي ٩٣ مليون ميل، ولكنه لا يقول لماذا كانت المسافة هكذا.

لنتصور ماذا يحدث لو أن المسافة كانت نصف ذلك، عندها ستكون درجة الحرارة على الأرض أربعة أضعاف ما هي عليه حالياً، وستتلاشى في الصيف الحياة عن وجه الأرض^{٨٤}.
إن الدين يريدنا أن نفكر لا في القانون أو في الحقيقة وكيف تحدث فقط، بل في حكمة الخالق الذي جعله هكذا فنزداد إيماناً بالله تعالى وطاعة له. والآيات في هذا لا تكاد تحصى ومنها:

قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾^{٨٥}.

وقال سبحانه ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَالِدَاتِ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾^{٨٦}.

وقال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخُلُقَ﴾^{٨٧}.

وقال سبحانه مادحا عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾^{٨٨}. فهم يرون ويسمعون آيات الله في الكون وفي القرآن ويتفكرون فيها.

وقال سبحانه ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾^{٨٩}.
ثم أتبع ذلك بذكر القيامة والحشر والحساب والجزاء.

^{٨٤} ندوة ضرورة تحرير الجامعات من رواسب التبعية، د.راشد المبارك، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ط١، ١٩٧٦م.

^{٨٥} سورة الروم ٨.

^{٨٦} سورة الروم ٢١-٢٢.

^{٨٧} سورة العنكبوت ٢٠.

^{٨٨} سورة الفرقان ٧٣.

^{٨٩} سورة عبس ٢٤.

وقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾^{٩٠}.

٣. الأمر بإعمار الكون.

لقد عبد الناس في بعض العصور الطبيعة، وقدسوا الشمس أو القمر أو النار أو الماء إلى غير ذلك، والآن يتمردون عليها، ويتحدونها ويحاولون قهرها، وكأن بينهم وبينها عداة^{٩١}.

وقبل الإسلام كان الاتجاه السائد في التدين نبذ العالم المادي وتكريس الاهتمام كله للآخرة. فجاء الإسلام وأحدث تغييرا جذريا في هذا المجال، فأمر بإعمار الكون وجعله سلاحا وطريقا للوصول إلى الآخرة^{٩٢}.

فالتبيعة في الإسلام ليست مقدسة، وليست عدوة، وليست منبوذة، بل هي مسخرة من الله لسعادة البشر، بل إن بينها وبين الإنسان نوعا من الألفة والصدقة والمودة، فلنتعلم كيف نتعامل معها، وإن تقديسها منع الناس من إجراء التجارب عليها، وإن معاداتها أدى إلى هدر طاقتها وتلوينها وتخریبها، وإن ما حدث للبيئة في القرن العشرين من تدمير يفوق ما حدث لها طوال تاريخها.

قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾^{٩٣}، فكل ما في الكون مسخر، وهو نعمة يجب المحافظة عليها.

وقال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَأَتَاكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^{٩٤}.

إنها كلها مسخرة فلنتعلم كيف نستفيد منها، وإنها نعم لا تحصى فلنحسن المحافظة عليها ولنشكر الله عليها.

^{٩٠} سورة الطارق ٥-٨.

^{٩١} مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل.

^{٩٢} الفكر العلمي الإسلامي، م. رضي الدين حقي.

^{٩٣} سورة لقمان ٢٠.

^{٩٤} سورة إبراهيم ٣٢ - ٣٤.

وأما علاقة الحب بين الكون والمؤمن فكقوله تعالى عن داود عليه السلام ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾^{٩٥}. إنها علاقة العبودية المشتركة بينه وبين الجبال والطيور لله رب العالمين.

وكالحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى أحد فقال (هذا جبل يحبنا ونحبه....)^{٩٦}.

وأما الكافر فإنه يستريح بموته كل شيء، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي قتادة الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (... والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)^{٩٧}.

٤. الإشارة إلى قوانين الكون.

فقد نفى الله سبحانه عن خلق الكون العيب واللهم واللعب، وذكر أنه خلق الكون وفق قوانين وسنن لا تبدل لها، وهذا جعل العلماء يبحثون عن هذه القوانين ويكتشفونها شيئاً فشيئاً، ويستخدمونها^{٩٨}.

قال تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^{٩٩}.

وقال سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^{١٠٠}.

وهذا يجعل البحث العلمي بحثاً جاداً، غير عابث، ويجعله بحثاً يراود به نفع الإنسان وحل مشكلاته^{١٠١}.

قال تعالى ﴿لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^{١٠٢}.

^{٩٥} سورة سبأ ١٠.

^{٩٦} صحيح البخاري رقم ٢٨٩٣.

^{٩٧} صحيح البخاري رقم ٦٥١٢.

^{٩٨} الأسس الحضارية للطريقة العلمية، د.يوسف علي.

^{٩٩} سورة المؤمنون ١١٥.

^{١٠٠} سورة الدخان ٣٨ - ٣٩.

^{١٠١} الأسس الحضارية، د.يوسف علي.

^{١٠٢} سورة فاطر ٤٣.

ويقول سبحانه مذكرا ببعض قوانين الكون في الفلك ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^{١٠٣}.

٥. أهمية الدليل والبرهان والبينة، وإعلان الحرب على التقليد الأعمى.

أي عدم أخذ المعلومات من غير دليل، فلا يصح اعتماد الظن الذي يعارض اليقين، كما لا يصح اعتماد الشك أو الوهم، ولا يصح اعتماد ما شاع بين الناس لمجرد أنه أمر شائع، ولا يصح تقديس الأشخاص وعد ما يقوله إنسان معين صوابا لا يحتمل الخطأ، إلا الأنبياء الذين عصمهم الله في مجال التبليغ، ومع ذلك فقد يخطئون فيما سوى ذلك.

قال تعالى ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^{١٠٤}.

وقال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾^{١٠٥}.

وقال سبحانه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾^{١٠٦}.

وقد شنع الله تعالى على من يعتمد تقليد السابقين دون بينة أو حجة فقال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^{١٠٧}.

فالبشر يناقشون، ولا يصح التسليم بكل ما يقولون، ولذلك لما ترجم المسلمون كتب اليونان بحثوا عن أدلة كلامهم، وناقشوه، وعرضوه للتجربة، حتى يقوم الدليل على صحته^{١٠٨}.

وشنع سبحانه على من يعتمد الظن في مقابلة العلم اليقيني فقال سبحانه ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾^{١٠٩}.

وقال تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^{١١٠}. فالظن ليس علما.

^{١٠٣} سورة يس ٣٨ - ٤٠.

^{١٠٤} سورة البقرة ١١١.

^{١٠٥} سورة النساء ١٧٤.

^{١٠٦} سورة الحديد ٢٥.

^{١٠٧} سورة البقرة ١٧٠.

^{١٠٨} الأسس الحضارية، د. يوسف علي.

^{١٠٩} سورة النجم ٢٨.

^{١١٠} سورة الجاثية ٢٤.

٦. الموضوعية والنزاهة.

فعلی الباحث أن يبحث عن الحقيقة كما هي، لا كما يريد أن يراها، أي أن يكون محايداً، وقد عبر اليونانيون عن ذلك بقولهم (العلم للعلم)^{١١١}، فهدف الباحث يجب أن يكون الوصول إلى الحقيقة بطلوها ومرها، سواء كانت مما يوافق رأيه وهواه أو مما لا يحبه ولا يرضاه، فالعلم عبادة، والعبادة تحتاج إخلاصاً وتجرداً^{١١٢}.

قال تعالى ناهياً عن خلط الحق بالباطل لهوى النفس ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^{١١٣}.

وقال سبحانه ناهياً عن اتباع الهوى ﴿وَلَنْ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^{١١٤}.

وقال سبحانه ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى﴾^{١١٥}.

٧. الحوار والجدال بالتي هي أحسن للاستفادة والإفادة.

وهذا منهج ضروري فإن الإنسان لا يمكن أن يبدأ من الصفر، ولا بد أن يستفيد مما عند الآخرين من علم ويضيفه إلى ما عنده، بل إن الحوار العلمي قد يعدل المعلومات، ويصحح الأخطاء، ويجعل المعلومات أقرب ما تكون إلى الحقيقة.

وإن السرية التي كان عليها علماء اليونان قد أدت إلى ابتعادهم عن المنهج العلمي الصحيح^{١١٦}، وبهذا التعاون العلمي الذي يحقق عالمية العلم يمكن أن يتقدم العلم بشكل أسرع ليكون في خدمة الإنسانية.

قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^{١١٧}. على أن يكون هذا الجدل والحوار عن علم لا عن جهل، قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾^{١١٨}.

^{١١١} أما في الإسلام فالعلم للاعتقاد والعمل.

^{١١٢} المنهج العلمي في الإسلام، د. أحمد سعيدان.

^{١١٣} سورة البقرة ٤٢.

^{١١٤} سورة البقرة ١٤٥.

^{١١٥} سورة النساء ١٣٥.

^{١١٦} الأسس الحضارية للطريقة العلمية، د. يوسف على.

^{١١٧} سورة النحل ١٢٥.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من استشارة أصحابه وحوارهم للاستفادة مما عندهم من آراء ومعلومات تنفيذاً للمنهج الإسلامي الوارد في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^{١١٩}.

ومن ذلك أنه استشارهم في غزوة الخندق فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق، كما كانت تفعل الفرس، فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم بالفكرة ونفذها مستفيداً من تجارب الآخرين.

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سمع بأسلوب جديد لتوثيق الكتب الرسمية، وهو أسلوب ختم الكتاب فأعجبه ذلك، وبدأ باستخدامه.

ففي الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري في كتاب العلم عن أنس بن مالك قال (كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً - أو أراد أن يكتب - فقل له إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة نقشه: محمد رسول الله)^{١٢٠} صلى الله عليه وسلم.

وتطبيقاً لهذا المنهج نشطت حركة الترجمة عند المسلمين وبخاصة في عهد الخليفة المأمون.

٨. تلقي العلم عن المتخصصين الثقات فقط.

ولا شك أن هذا المنهج في غاية الأهمية، فإنما تختلط المعلومات إذا كانت مأخوذة عن غير المتخصصين، وأما الأخذ عن أصحاب التخصص فقط فإنه يضبط المعلومات، ويضع الأمور في نصابها، قال تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^{١٢١}.

وأهل الذكر هم أهل العلم وأهل التقوى.

وقال سبحانه ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾^{١٢٢}.

^{١١٨} سورة الحج ٨.

^{١١٩} سورة آل عمران ١٥٩.

^{١٢٠} صحيح البخاري رقم ٦٥.

^{١٢١} سورة النحل ٤٣.

^{١٢٢} سورة الفرقان ٥٩.

٩. عدم القول بغير علم.

وهذا أيضا في غاية الأهمية، وهو منهج يعالج الأخطاء العلمية علاجا وقائيا قبل أن تقع، وقبل أن تصدر، وهو منهج قرآني واضح قال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^{١٢٣}.

فالكلمة أمانة والعلم أمانة يسأل عنه صاحبه يوم القيامة بين يدي الله تعالى.

وقد جعل الله سبحانه القول بغير علم محرما من المحرمات الكبيرة قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^{١٢٤}.

١٠. التكامل بين مصادر العلم.

إن هذا المنهج العلمي ربما يكون أهم منهج يميز الإسلام عن غيره، وإنه إذا اعتمد سيغير وجه الحضارة الإنسانية إلى الأفضل.

فقد سبق أن ذكرنا أن مصادر العلم ثلاثة هي الوحي (الخبر الصادق) والعقل والحس، وقد اعتمدها الإسلام كلها، والإسلام يعدها غير متناقضة، ولكنها متكاملة، لأنها محدودة، ولأن في كل واحد منها ما ليس في الآخر.

وفي كل منها ما هو قطعي، وما هو راجح لكنه يحتمل غير ذلك، والقطعيات فيها لا تتعارض، وإذا عارض قطعي ظنيا أخذنا بالقطعي، وإذا عارض ظني ظنيا أخذنا بالأقوى منهما في كل موضوع على حدة^{١٢٥}.

فعلى سبيل المثال لا تعارض بين الدين والعقل في مسألة الآخرة، فالحياة بعد الموت للحساب والجزاء أمر لا يدركه العقل أي لا يدخل تحت نطاقه، فلا يستطيع أن يتناوله بنفي أو إثبات.

فهناك فرق كبير بين ما لا يدركه العقل، فهو لا يتناوله بنفي ولا إثبات، وبين ما يحكم العقل حكما قاطعا بنفيه أو إثباته^{١٢٦}.

^{١٢٣} سورة الإسراء ٣٦.

^{١٢٤} سورة الأعراف ٣٣.

^{١٢٥} الحقيقة بين العلم والدين، عبد الرحمن حبنكة الميداني.

^{١٢٦} الحقيقة بين العلم والدين، عبد الرحمن حبنكة الميداني.

وهكذا فالبعث والحساب والجزاء لا يدخل تحت قدرة العقل، أو تحت نطاق العلم التجريبي، وإنما يدخل في نطاق العلم عن طريق الخبر الصادق وهو الوحي فقط. وإن ذكر هذه المصادر الثلاثة في القرآن كثيراً مجتمعة ومتفرقة يدل بلا شك على اعتمادها كلها بشكل متكامل، وقد سبق ذكر بعض الآيات في (مصادر العلم).

١١. تشجيع العمل اليدوي.

لقد كان العمل اليدوي عند كثير من الشعوب محتقرا لا يليق بعلية القوم، ولا بالأذكىاء، وقد عرقل هذا الفهم التجربة، والتطوير للأدوات المستخدمة والآلات، فجاء الإسلام فشجع العمل اليدوي، ومدح الذين يعملون بأيديهم ويأكلون من ذلك، ولم يجعل لأحد على أحد فضلاً إلا بالتقوى قال تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^{١٢٧}.

قال سبحانه ذاكرا بعض نعمه ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾^{١٢٨}. فالأكل من عمل اليد نعمة تستحق الشكر.

وقد منَّ الله على سيدنا داود بأنَّ أَلانَ له الحديد يصنع منه الدروع للحرب قال تعالى ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ، أَنْ أَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^{١٢٩}.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن المقدم رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)^{١٣٠}.

وقد كان للأنبياء بشكل عام مهنا وأعمالا يقومون بها، وكذلك كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد مهد العمل اليدوي في كافة المجالات للتجربة والتحسين والتطوير.

^{١٢٧} سورة الحجرات ١٣.

^{١٢٨} سورة يس ٣٥.

^{١٢٩} سورة سبأ ١٠-١١.

^{١٣٠} صحيح البخاري رقم ٢٠٧٢.

١٢. التجربة.

لقد نادى فلاسفة اليونان بالبرهان المنطقي الاستنتاجي، ولم يقبلوا في كثير من الأحيان التجربة، لأن الحواس تخدع، ومن قَبِل التجربة منهم قبلها بحذر، ولم يرفعها إلى مستوى الدليل العقلي، حتى كان بعضهم لا يُسَلِّم بأن اللهب ساخن إلا باستنتاج منطقي^{١٣١}.

أما في ظل الإسلام فقد كان الأمر مختلفا جدا:

أ- فقد جعل القرآن الحس مصدرا من مصادر العلم، كما ذكرنا سابقا، لذلك حث الإسلام على النظر في الكون، والتفكير في قوانينه، والاستفادة مما فيه.

ب- لقد حفز الله تعالى المسلمين على العلوم المادية التجريبية من خلال بعض الفرائض الإسلامية الأساسية كالصلاة والصيام والزكاة والحج^{١٣٢}.

فتحديد مواقيت الصلاة يحتاج إلى مراقبة الشمس والظل والفجر والشفق وما شاكل ذلك. وتحديد القبلة يحتاج إلى معلومات فلكية وجغرافية.

وتحديد بدايات الشهور وبداية السنة، وحولان الحول يحتاج إلى علم الفلك.

وفرض الحج على القادرين يجبرهم على السير في الأرض، ومشاهدة ما فيها من عجائب، وهو مؤتمر إسلامي سنوي ينبغي أن يتم فيه تبادل العلم والمعرفة، ولقد كان كثير من العلماء يضعون خططهم لزيارة المراكز العلمية والتعلم فيها منسجمة مع خططهم لزيارة بيت الله الحرام، فتكون بذلك رحلة دينية علمية قد تستغرق سنوات طويلة جدا.

ت- وقد وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى الناس في المدينة وهم يُلقِّحون النخل، وهو أمر لم ينزل فيه عليه الوحي، وهو أمر لا يعرف بالتفكير العقلي البحت، وإنما يعلم بالتجربة، وهو لم يجرب عدم التلقيح، فأراد أن يرى نتائج عدم التلقيح، وقد كان ذلك، وأقر بنتيجة التجربة دون تردد، مع أنها خالفت ظنه، ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن طلحة بن عبيد الله التيمي قال: مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على رؤوس النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أظن يغني ذلك شيئا، قال فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك

^{١٣١} المنهج العلمي في الإسلام، د. أحمد سعيدان.

^{١٣٢} التطور العلمي، قيصر مشتاق و أ.ل. تان، مجلة الفكر الإسلامي والإبداع العلمي، م ٢، عدد ٢، حزيران

فليصنعوه، فأني إنما ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فأني لن أكذب على الله تعالى^{١٣٣}.

فهنا قال (إن كان ينفعهم) أي من خلال التجربة السابقة (فليصنعوه).

ث- وفي الاستفادة من التجربة السابقة بشكل عام لا في مجال واحد من المجالات، جاء الحديث الصحيح الذي يرويه مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا يلدغ مؤمن من جرح مرتين)^{١٣٤}.

ج- وقد سلك العلماء المسلمون طريق الملاحظة والتجربة والاستنتاج دون تردد في وقت مبكر من تاريخ الحضارة الإسلامية، ولقد وصل ذلك إلى مرحلة متقدمة منذ القرن الثامن الميلادي على يد جابر بن حيان (٧٢١-٨٠٦م) الذي يعد من أعظم علماء الكيمياء لقرون طويلة، والخوارزمي (ت ٨٦٣م) في الرياضيات، ثم الرازي (٨٦٥-٩٢٥م) في الطب، ثم ابن الهيثم (٩٦٨-١٠٣٩م) في البصريات، والبيروني (٩٧٣-١٠٥٠م) وابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م)^{١٣٥}.

١٣. التعلم والتعليم المستمر.

فالعلم في الإسلام لا يقف عند حد معين، ولا سن معين، بل هو مطلوب باستمرار، وأنه عبادة لا تتوقف إلا بانتهاء الحياة، وهو نعمة لا يُطلب فيها الزهد، بل يطلب فيها التنافس والاستزادة. يقول سبحانه وتعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^{١٣٦}، وهو خطاب موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أولاً ثم إلى كل مخاطب ثانياً.

وقد روى البخاري في الحديث الصحيح عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (بينما موسى في ملاء من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه..)^{١٣٧}.

^{١٣٣} صحيح مسلم رقم ٢٣٦١، وانظر ما بعده.

^{١٣٤} المصدر السابق رقم ٢٩٩٨.

^{١٣٥} الفكر العلمي الإسلامي، م. رضي الدين حقي.

^{١٣٦} سورة طه ١١٤.

^{١٣٧} صحيح البخاري رقم ٧٤.

فالنبي صلى الله عليه وسلم يحث الصحابة على التعلم من خلال قصة موسى عليه السلام الذي لما علم أن هناك من هو أعلم منه، طلب من الله أن يدلّه عليه ليتعلم منه، وقد قص القرآن الكريم قصته معه، وفي هذا المجال يقول ابن المبارك كما ذكر الغزالي: لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد عَلم فقد جهل^{١٣٨}.

وبعد هذه الجولة السريعة في عناصر المنهج العلمي في الإسلام نجد أنه ما من منهج صحيح للعلم إلا جاء جلياً واضحاً في الإسلام، بل إن موقف العالم الآن تجاه العلم والمعرفة قد حددته تعاليم الإسلام^{١٣٩}.

بل إن بعضها لم يصل إليه العلم حتى الآن مثل جعل العلم عبادة، ومثل التكامل والتوازن بين مصادر العلم.

إن المؤرخين الغربيين يعترف كثير منهم بالأصل الإسلامي للطريقة العلمية، ومنهم: روبرت بريفولت في كتابه (صنع الإنسانية)، والسير أوليفر لودج في كتابه (رواد العلم)، وجورج سارتون في كتابه (مقدمة في تاريخ العلم)^{١٤٠}.

^{١٣٨} إحياء علوم الدين ٥٩.

^{١٣٩} الفكر العلمي الإسلامي، م.رضي الدين حقي.

^{١٤٠} الفكر العلمي الإسلامي، م.رضي الدين حقي.

خامساً: الدين والعلم التجريبي

لقد تقدم العلم التجريبي في هذا القرن تقدماً كبيراً يفوق تقدمه طوال تاريخ البشرية، ولذلك أحببت أن أفرد علاقته بالدين بعنوان مستقل، وبخاصة أن العلم التجريبي الآن يسهم في تحديد الدين الحق من بين الأديان الأخرى المحرفة والباطلة.

ولهذا التقدم العلمي التجريبي الكبير وجد رجال الكنيسة أنفسهم مضطرين تحت ضغط الحقائق الجديدة إلى الاعتراف بأن الكتاب المقدس محرف وفيه شوائب وبطلان، كما ذكر ذلك موريس بوكاي نقلاً عن المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان ١٩٦٢-١٩٦٥م، بأغلبية ٢٣٤٤ صوتاً مقابل ستة أصوات فقط^{١٤١}.

وسأعرض العلاقة بين الإسلام والعلم التجريبي من خلال النقاط التالية:

١. هل يتعارض الإسلام والعلم التجريبي؟

للجواب عن هذا السؤال لا بد من التفصيل، لأن الجواب بدون تفصيل خطأ سواء كان بالنفي أم بالإثبات.

فالأيات القرآنية والأحاديث الصحيحة تنقسم إلى قسمين:

أولهما: ما جاء بنص قطعي الثبوت ١٠٠% (القرآن والحديث المتواتر) وقطعي الدلالة: أي اتفق العلماء على معناه، وهذا يفيدنا علماً قطعياً، وسأسميه (حقيقة إسلامية).

ثانيهما: ما غلب على الظن ثبوته (أكثر من ٧٥%) وهو (الحديث الآحاد) أو غلب على الظن أن معناه كذا، ولم يكن معناه قطعياً، وهذا يعطينا علماً راجحاً، وسأسميه (ظناً إسلامياً).

والعلم التجريبي ينقسم أيضاً إلى قسمين رئيسيين:

أولهما: الحقائق: وهي ما ثبت ثبوتاً قطعياً، وأجمع عليه المتخصصون.

وثانيهما: الظن العلمي: وهو يشمل الفرضيات والنظريات.

والسؤال عن تعارض الإسلام والعلم التجريبي له أربع حالات:

أ- لا يمكن أن نجد حقيقة إسلامية تتعارض مع حقيقة علمية^{١٤٢}، ومهما حاول المتخصصون البحث عن مثال تتعارض فيه الحقيقتان فلن يجدوا، والسبب في ذلك أن

^{١٤١} دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي ٦٠،٥٩.

^{١٤٢} رسالة التعاليم، الشيخ حسن البناء، رسالة التعاليم، الفهم، رقم ١٩.

كليهما من عند الله تعالى، فالله هو الذي وضع قوانين الكون، وهو الذي يذكر بعض هذه القوانين والحقائق في كتابه، أو فيما أوحاه بالمعنى إلى نبيه، فكيف يمكن أن يحدث تعارض؟.

ب- أما تعارض الحقيقة الإسلامية مع الظن العلمي فهذا ممكن وموجود فعلا، والأمثلة عليه كثيرة، كتعارض فرضية^{١٤٣} دارون في كيفية وجود أول إنسان على وجه الأرض مع القرآن الكريم، وهنا نأخذ بالحقيقة الدينية لأنها حقيقة، ونرفض الفرضية لأنها تخالف ما هو أقوى منها^{١٤٤}.

ت- وكذلك يمكن أن تتعارض الحقيقة العلمية مع الظن الإسلامي، أي مع أحد معاني آية ظنية الدلالة، أو مع حديث ظني الثبوت أو الدلالة.

وذلك كتعارض ظواهر بعض الآيات التي تدل لأول وهلة على عدم كروية الأرض مع الحقيقة العلمية التي تُرى الآن بالعين.

وكتعارض ظاهر الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري وغيره عن ابن مسعود (إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك....)^{١٤٥} مع حقيقة تشكل العظام، وظهورها في الصور الشعاعية، والتشريح، قبل نهاية الأشهر الأربعة بكثير^{١٤٦}.

وهنا نأخذ بالحقيقة العلمية لأنها حقيقة، ونفسر النص الصحيح بما يتناسب معها، وذلك سهل جدا في غالب الأحيان.

ث- وربما ورد تعارض الظن العلمي مع الظن الإسلامي، وهذا هو ما تندرج تحته أكثر الأمثلة التي تُذكر عادة في تعارض الدين والعلم.

^{١٤٣} الصحيح أنها فرضية وليست نظرية، بل لا يمكن أن تصبح في المستقبل نظرية، لأن النظرية لا تكون إلا بعد إجراء التجارب على الفرضية، وهذا مستحيل في هذا الموضوع، لأنه وصف لشيء حدث في الماضي السحيق، ولم يتكرر، فكيف تجرى عليه التجارب.

^{١٤٤} رسالة التعاليم، الشيخ حسن البنا، رسالة التعاليم، الفهم، رقم ١٩.

^{١٤٥} صحيح البخاري رقم ٣٢٠٨.

^{١٤٦} كتبت في هذا الموضوع بحثاً بعنوان (متى تنفخ الروح في الجنين؟) تم نشره في مجلة دراسات في الجامعة الأردنية، العدد الثاني عشر، من المجلد الثالث عشر، عام ١٩٨٦م، وقد طبعته دار الفرقان، عمان الأردن، وهو موجود على النت.

وهنا نأخذ بالأرجح، فتقدم غلبة الظن على الظن، فإن كانت نسبة ثبوت الظن الشرعي ٩٠% مثلاً، ونسبة ثبوت الظن العلمي ٧٠% تقريباً، فنأخذ بالظن الشرعي، وإن كان الأمر عكس ذلك أخذنا بالظن العلمي. والله أعلم.

٢. تفسير النصوص الإسلامية بالعلم التجريبي:

لقد ورد في القرآن الكريم أكثر من ألف آية تتحدث عن الكون بما فيه من سماء وأرض، وشمس وقمر، ونجوم وكواكب، وسحاب ومطر، ورعد وبرق، وأرض وجبال، وبحار وأنهار، وكائنات حية من إنسان وحيوان وطيور ونباتات، إلى آخر ما هنالك في هذا الكون الفسيح.

وورد في ذلك أيضاً كثير من الأحاديث النبوية.

ولابد من تفسير هذه الآيات والأحاديث، وقد استعمل المفسرون من الصحابة ومن بعدهم المعلومات المتوفرة لديهم عن الكون والإنسان في تفسير تلك الآيات والأحاديث أحياناً، برغم قلة الحقائق التي كانت عندهم عن الكون وقوانينه، وكان منهم ابن عباس وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنهما، وكانوا يتوقفون عن تفسيرها أحياناً أخرى.

وإنه لمن الضروري استخدام العلوم التجريبية الحديثة في تفسير النصوص الشرعية، على أن يكون ذلك بشكل جاد غير عابث، دون إفراط أو تفريط، ودون مغالاة، وبحسب الحالات التالية:

أ- فيمكن بكل اطمئنان الربط بين الحقائق الإسلامية والحقائق العلمية، كما في مراحل خلق الجنين في بطن أمه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام إلى لحم.

ب- ويمكن الربط بين الحقائق الشرعية والظن العلمي، مع اعتقادنا بأن هذا الظن العلمي لا يمكن أن يكون خطأً، لأن الحقيقة الدينية التي تؤكده لا يمكن أن تكون غير صحيحة، وذلك كتفسير قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾^{١٤٧} بالنظرية التي تقول إن النجوم والكواكب بعد تباعدها عن بعضها بسبب الانفجار الأول ستعود مرة أخرى كتلة واحدة كما كانت^{١٤٨}.

ت- وكذلك يمكن الربط بين الحقائق العلمية والظن الديني، فإن الحقيقة العلمية ترجح رأياً من الآراء في تفسير النص الشرعي، وتؤكد معنى الحديث الأحادي، بل إنها قد تقوي

^{١٤٧} سورة الأنبياء ١٠٤.

^{١٤٨} الإنسان في الكون بين القرآن والعلم ٣٨٩، عالم المعرفة ط١، ١٩٨٣م.

الحديث الضعيف ضعفا يسيرا، كما يقويه حديث ضعيف آخر فيرتقي به إلى درجة الحسن لغيره، وبخاصة إذا كان سبب تضعيفه الشذوذ في المتن ظناً بأنه يخالف العقل أو الواقع، وذلك كالحديث الذي يرويه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد (فإن تحت البحر ناراً) ^{١٤٩}، فهذا حديث ضعيف يقويه العلم الذي أثبت أن باطن الأرض حار جداً تبلغ حرارته مئات درجات الحرارة، وأن ما تحت القشرة يغلي، ويخرج شيء منه أحياناً من فوهات البراكين، وقاع المحيطات.

والحالات الثلاث السابقة يمكن فيها ربط المعلومات الإسلامية بالمعلومات التجريبية باطمئنان، لأن أحد الطرفين أو كليهما قطعي فلا خوف من ذلك إذن.

ث - وأما الذي ينبغي فيه الحذر فهو ربط الظن الإسلامي بالظن التجريبي، ولا أقول هذا الربط ممنوع وخاطيء، بل أقول ينبغي الحذر عند تفسير النص الشرعي الظني بالعلم التجريبي الظني، والإشارة إلى أن هذا المعنى قد يكون صحيحاً، وقد يكون غير صحيح علماً بأنه إذا اجتمع الظنان على أمر قوى كل منهما الآخر، إلا أن احتمال الخطأ يبقى موجوداً، ولذلك ينبغي الحذر.

ولعل من الأمثلة على ذلك تفسير قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ^{١٥٠} بالفرضية التي تقول بوجود كائنات حية عاقلة على بعض الكواكب الأخرى في الكون الفسيح، لأن الآية تشير إلى أن الله بث في السموات والأرض دواباً.

شروط التفسير العلمي:

لا بد من وضع الشروط اللازمة لكي لا ينحرف التفسير العلمي للنصوص الشرعية عن المنهج الصحيح وهذه الشروط هي:

- أ- أن لا يتعارض تفسير النص الشرعي مع قواعد اللغة العربية.
- ب- أن لا يتعارض مع نص شرعي آخر أقوى منه.

^{١٤٩} السنن لأبي داود ٦/٢.

^{١٥٠} سورة الشورى ٢٩.

ت- أن لا تفسّر المعجزات تفسيراً علمياً، لأن المعجزات خارقة للعادات، أي لقوانين الكون وسننه، والعلم التجريبي يسير على هذه القوانين، فالمعجزات استثناء من تلك القوانين والسنن.

ث- تجنب تفسير الآيات المتعلقة بما بعد قيام الساعة تفسيراً علمياً، لأن قيام الساعة فيه انفراط لقوانين الكون كما نعلم.

هل في الإسلام إعجاز علمي؟

يرى بعض العلماء أن ما في القرآن والسنة من معلومات عن الكون والإنسان لا يسمى إعجازاً علمياً، لعدم وجود التحدي في ذلك.

ولكن جمهوراً من العلماء - وبخاصة في العصر الحديث - يرون أن في القرآن والسنة إعجازاً علمياً، وهذا الرأي هو الذي أراه راجحاً لما يلي:

أ- لقوله تعالى ﴿سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^{١٥١}، ولا شك أن هذه الآيات في الأفاق والأنفس ليست آيات في الإعجاز اللغوي البياني، وإنما هي إعجاز علمي سيكتشف بعد نزول القرآن (سنريهم).

والهدف من هذه الآيات هداية الإنسان إلى أن الإسلام هو الحق.

ولقوله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾^{١٥٢}. فهي آيات تأتي في المستقبل، وهي آيات تُرى، يراها العلماء بأعينهم.

ب- لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يؤيد رسله بالمعجزات، وأن تكون هذه المعجزات فيما تفوقت فيه أقوامهم، والقرآن الكريم هو معجزة الإسلام الباقية إلى قيام الساعة، فلا بد أن يكون معجزاً لكل الأمم والشعوب إلى قيام الساعة.

وإذا كان الإعجاز اللغوي يناسب العرب حينما كانت لغتهم سليمة وذوقهم سليماً، فإن الإعجاز العلمي الآن يناسب العرب وغيرهم، لأن العلم هو اللغة العالمية الآن، ويمكن أن يفهمه الناس بمختلف اللغات، وهو يناسب ما تفوق به الناس اليوم في القرن العشرين من علوم تجريبية.

^{١٥١} سورة فصلت ٥٣.

^{١٥٢} سورة النمل ٩٣.

ت- أن الهدف من الإعجاز البياني والتحدي به إثبات أن القرآن من الله تعالى، وليس من محمد صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن الآيات العلمية في القرآن توصل إلى النتيجة نفسها، فهي تثبت أن هذا القرآن يستحيل أن يكون من عند البشر.

ث- أن التحدي بالقرآن الكريم ليس فيه تصريح بأنه تحدٍ لغوي، بل هو تحدٍ مطلق فيشمل كل أقسام الإعجاز، ومنه التحدي بالآيات المتعلقة بالعلم، وهو الإعجاز العلمي.

على أن كثيرا ممن ينكر الإعجاز العلمي يقولون إن في القرآن إشارات علمية، أو آيات علمية لا يمكن أن تكون من عند غير الله، وعلى هذا يكون الخلاف لفظيا فقط.

الفرق بين الإعجاز البياني والإعجاز العلمي:

يوجد فرقان رئيسان بين الإعجاز البياني والإعجاز العلمي:

أولهما: أن الإعجاز البياني موجود في كل آيات القرآن الكريم، بينما نجد الإعجاز العلمي في بعض الآيات، وهو بذلك يشبه الإعجاز بالإخبار عن المستقبل، فإنه في بعض الآيات فقط.

ثانيهما: الإعجاز البياني خاص بالقرآن الكريم، أما العلمي فموجود في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية كذلك، كما هو الأمر بالإخبار عن المستقبل أيضاً.

مجالات الإعجاز العلمي:

يظن البعض أن كل ما يدل على وجود خالقٍ للكون من خلال عجائب المخلوقات يعد من الإعجاز العلمي، وهذا في الحقيقة غير صحيح، لأن النتيجة عندئذ هي إثبات أن لهذا الكون خالقاً، وأنه لم يخلق صدفة، ولكن هذه النتيجة تشترك فيها كثير من الديانات والعقائد، وليس في ذلك ميزة خاصة بالإسلام وكتابه المعجز وهو القرآن الكريم.

والصحيح أن الإعجاز العلمي هو الذي يدل على أن القرآن والسنة إنما هما من الله تعالى لا من البشر، وأن الإسلام هو الدين الحق وحده، وذلك من خلال الاكتشافات العلمية، وإذا كان الأمر كذلك فإن مجالات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة هي:

١. أنه لا تعارض بين الحقائق الإسلامية والحقائق التجريبية، وهذا غير موجود في أي كتاب آخر، سواء من الكتب المقدسة عند غير المسلمين، أو من الكتب العلمية التي تتحدث عن الكون وظواهره وقوانينه التي كتبها أصحابها قبل قرون، بل قبل عشرات السنين.

ولأن في القرآن كثيراً من الآيات التي تتحدث عن الكون فإنه لا مجال لتفسير عدم التعارض بالصدفة فإن هذا مستحيل حسب قانون الاحتمالات.

٢. أن القرآن والسنة قد اشتملا على كثير من الحقائق العلمية الدقيقة التي لم تكتشف إلا بعد قرون طويلة من نزول القرآن.

وليس معنى هذا أن القرآن والسنة كتابان في الطب والفلك وغيرهما، ولكن الأمثلة المذكورة كثيرة وموزعة على تخصصات كثيرة للفت النظر إلى أن القرآن الكريم من الله تعالى، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله تعالى.

وليس في هذا البحث مجال لسرد هذه الأمثلة فهي كثيرة جداً، وقد بدأت تظهر - والله الحمد - كتب وأشرطة على مستوى جيد في هذا المجال، وعقدت عدة مؤتمرات في الإعجاز العلمي تحت إشراف هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.

٣. الإعجاز العلمي في التشريع الإسلامي، فقد اكتشف العلم التجريبي كثيراً من الحكم التي لم تكن تخطر على بال لتحريم الخمر ولحم الخنزير والزنا واللواط، ولتشريع العقوبات وأثرها في المجتمع، والعبادات وأثرها في النفس والمجتمع.

٤. أن الله تحدى العلماء بأمر لن يصلوا إليها حتى قيام الساعة، كالخلق من عدم، ونفخ الروح في الجمادات والأموات، وعلم المستقبل^{١٥٣}.

^{١٥٣} كتبت في هذا بحثاً بعنوان (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله) نشر في مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، المجلد الخامس عشر، العدد الثالث، ١٩٨٨م، وهو منشور على النت.

سادسا: أخلاق العلماء

إن من شمولية الإسلام أنه لا يفصل بين المعلومات والقيم والأخلاق، ذلك لأن العلم أداة يمكن أن تستعمل في الخير أو الشر، والقيم والأخلاق هي التي تضبط ذلك، فلا انفصام بين الأمرين، ولقد مرت البشرية الحديثة بهذا الفصام النكد، ولكنها بدأت منذ سنوات تدرك أهمية القيم للمجتمعات، وذلك بعد الموجة المادية التي اجتاحت العالم، وبدأ العالم يدرك شيئا من نتائجها المدمرة.

وقد كتب علماؤنا كتبا خاصة في هذا المضمار، ولعل من أقدمها كتاب (أخلاق العلماء) للآجري المتوفى سنة ٣٦٠هـ، وعقد الغزالي بابا في آداب المتعلم والمعلم في كتابه الشهير إحياء علوم الدين.

وسأذكر أهم هذه الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها العلماء من خلال القرآن والسنة:

١. الإخلاص.

أي أن يكون الهدف الأول من التعليم إرضاء الله تعالى، من خلال تعميق الإيمان به، ومن خلال استخدام هذا العلم في ما يرضي الله وينفع الناس.

فالعلم عبادة كما ذكرنا سابقا وقد قال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^{١٥٤}، أما من تعلم العلم رياء فقد ورد فيه الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه.... ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار....)^{١٥٥}.

٢. التواضع.

وهو خلق إسلامي عام، ولكن العلماء بحاجة إليه أكثر من غيرهم، لأن العالم قد يعُثر علمه، وإن أول معصية عُصي بها الله تعالى هي الكبر، حينما تكبر إبليس عن السجود لآدم.

^{١٥٤} سورة البينة ٥.

^{١٥٥} صحيح مسلم رقم الحديث ١٩٠٥.

وقد مدح الله تعالى علماء بني إسرائيل الذين لا يتكبرون على الحق فقال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^{١٥٦}.

وحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من التكبر بالعلم والمباهاة به، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه ابن ماجة عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لَتَبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا لَتَمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالِنَارِ النَّارِ)^{١٥٧}.

فبيغي للعالم أن يكون متواضعا بعلمه لأساتذته وأقرانه، بل ولطلابه ولعامة الناس، ولا يزيده ذلك إلا رفعة، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي يرويه مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (....وما تواضع أحد لله إلا رفعه)^{١٥٨}.

٣. العمل بالعلم.

فلا يكتفي الإسلام أن يكون العلم للمتعة العقلية فقط، بل لا بد أن ينتفع به صاحبه، ويعمل به وإلا كان حجة عليه في الدنيا والآخرة، وكان قدوة سيئة لغيره، فالعالم يُعَلِّمُ بعمله أكثر مما يعلم بكلامه.

قال الغزالي: أن يكون عاملا بعلمه، فلا يُكَدِّبُ قوله فعله، لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار، وأرياب الأبصار أكثر، فإذا خالف العملُ العلمَ منع الرشد، وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك، سخر الناس به واتهموه، وزاد حرصهم على ما نُهوا عنه، فيقولون: لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به ولذلك قيل:

لا تَنَّهُ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِي بِمِثْلِهِ عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمَ

قال تعالى ﴿اتَّمُرُوا بِالنَّاسِ بِالْخَيْرِ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^{١٥٩}.

ولذلك كان وُزْرُ الْعَالِمِ فِي مَعَاصِيهِ أَكْثَرَ مِنْ وَزْرِ الْجَاهِلِ، إذ يزل بزلة عالم كثير ويقتدون به، ومن سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها، ولذلك قال على رضي الله

^{١٥٦} سورة المائدة ٨٢.

^{١٥٧} السنن لابن ماجة رقم ٢٥٤، وقد صححه العراقي، المغني عن حمل الأسفار للحافظ العراقي ٥٩/١، دار الرشد الحديثة.

^{١٥٨} صحيح مسلم رقم ٢٥٨٨.

^{١٥٩} سورة البقرة ٤٤.

عنه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل منتسك، فالجاهل يُعزُّ الناس بتنسكه، والعالم يغرهم بتهتكه^{١٦٠}.

وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^{١٦١}.

٤. تعليم العلم وعدم كتمة.

وهذا واجب من الواجبات في الإسلام، فالعلم ليس للاحتكار ولكنه حق للناس جميعا وهو مستوى لم يصله المنهج العلمي المعاصر^{١٦٢}، والآيات في ذلك كثيرة منها:

قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾^{١٦٣}.

وقال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾^{١٦٤}.

وقال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^{١٦٥}.

وقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سئل عن علم علمه ثم كتمة أجم يوم القيامة بلجام من نار)^{١٦٦}.

وهذا يجعل العلم عالميا في التعلم والتعليم، ولذلك استقطبت الجامعات الإسلامية طلابا وعلماء من كافة الأجناس والأديان.

٥. الأمانة العلمية.

وهذا الخلق في غاية الأهمية، وهو يعني أن تعترف لكل ذي سبق بسبقه، فلا تسرق اكتشافات الآخرين، وأن تكون دقيقا في عرض نتائجك، فلا تبالغ فيها، ولا تراوغ، ولا تجبن عن قول

^{١٦٠} إحياء علوم الدين للغزالي ٥٨/١.

^{١٦١} سورة الصف ٣، ٢.

^{١٦٢} المنهج العلمي في الإسلام، د. أحمد سعيدان.

^{١٦٣} سورة البقرة ١٥٩.

^{١٦٤} سورة آل عمران ١٨٧.

^{١٦٥} سورة المائدة ٦٧.

^{١٦٦} الجامع للترمذي رقم ٢٧٨٧، وهو حديث حسن.

الحقيقة، وهذه الأخلاقيات جديدة على البحث العلمي الغربي، ولعلها قد استقرت في القرن العشرين^{١٦٧}، أما في الإسلام فقد رسخت من خلال الحث على الأمانة بشكل عام قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^{١٦٨}.

ومن خلال الحث على الصدق، وقول الحق، وعدم خلط الحق بالباطل قال تعالى ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^{١٦٩}.

ولقد ضرب العلماء المسلمون أروع الأمثلة في الدقة العلمية والأمانة، فلقد جمعوا القرآن، وحفظوا السنة النبوية على نحو لا زيادة فيه لمستزيد، حتى كان الرجل يسير الأيام والأسابيع ليتأكد من حديث واحد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن من الأمثلة الرائعة في الأمانة العلمية أن يروي الراوي حديثاً فيه ما يسيء إليه، كما فعل أبو زر في الحديث الذي يرويه عنه البخاري يقول أبو زر: سابت رجلاً فغيرته بأمه، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا زر، أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية^{١٧٠}.

إنها الأمانة التي تستند إلى عقيدة تملأ العقل والقلب هي التي جعلت أبا زر يروي هذا الحديث كما هو، دون تغيير أو تبديل.

٦. استعماله في الخير.

فالعلم سلاح ذو حدين، وهو وسيلة يمكن أن يستخدم في الخير، كما يمكن أن يستخدم في الشر، وإن العالم الذي لا خلق عنده ولا دين أخطر على البشرية من الجاهل.

فعالم الدين السيئ يخدع العامة ويضل الناس، فيصور لهم الدين الحق باطلاً، والباطل حقاً، بسبب هوى في نفسه، ويحل لهم الحرام ويحرم عليهم الحلال، ويبيعهم صكوك الغفران، ويتلاعب بالدين كما يشاء، قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾^{١٧١}.

وعالم القانون السيئ يبحث عن ثغرات قانونية ليبرئ المجرم الذي يعيث في الأرض فساداً. والطبيب السيئ يرى أجساد المرضى سلعة للتجارة، وقد يصل به الأمر إلى أن يبيع أعضاء بعض المرضى ويتاجر بصحتهم.

^{١٦٧} المنهج العلمي في الإسلام.

^{١٦٨} سورة النساء ٥٨.

^{١٦٩} سورة البقرة ٤٢.

^{١٧٠} صحيح البخاري رقم ٣٠.

^{١٧١} سورة الجاثية ٢٣.

والمهندس الذي لا خلق عنده بيني للناس بيوتا تنهار بعد سنوات فوق رؤوسهم.

وكم من علوم استخدمت لتدمير البشر والبيئة، لأغراض استعمارية.

ولقد بدأ العالم منذ سنوات يدرك أهمية الأخلاق في كل علم ومهنة، ونشأت في العالم ما تسمى (أخلاق المهنة).

وقد جاء في القرآن الكريم ما ينهي عن الإفساد في الأرض بكل صورته وأشكاله قال تعالى ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^{١٧٢}.

وقال سبحانه في الذين يتعلمون ما يضر ولا ينفع ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾^{١٧٣}، فالأصل أن يكون العلم علما نافعا.

وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة... أو علم ينتفع به..^{١٧٤})، فالعلم النافع الذي يستخدم في الخير ومنفعة البشرية هو الذي يستمر أجره بعد الموت.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه يقول (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع)^{١٧٥}.

وهكذا فلا يكون العلم خيرا وطاعة وعبادة إلا إذا استخدم في نفع البشرية.

اللهم انفعنا بما علمتنا، وعلمنا بما ينفعنا، وزدنا علما.

والحمد لله رب العالمين.

^{١٧٢} سورة البقرة ٦٠.

^{١٧٣} سورة البقرة ١٠٢.

^{١٧٤} صحيح مسلم رقم ١٦٣١.

^{١٧٥} صحيح مسلم رقم ٢٧٢٢.

المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. إحياء علوم الدين، الغزالي، دار الرشاد الحديثة، المغرب.
٣. الأسس الحضارية للطريقة العلمية، د.يوسف علي، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية ١٩٨٥م.
٤. الإنسان في الكون بين القرآن والعلم، د.عبد العليم خضر، عالم المعرفة ط١، ١٩٨٣م.
٥. التطور العلمي بين القرنين الثامن والحادي عشر الميلادي، قيصر مشتاق و أ.ل. تان، مجلة الفكر الإسلامي والإبداع العلمي، م٢، عدد ٢، حزيران ١٩٩٢م.
٦. تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م.
٧. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٩م.
٨. الجامع الصحيح وبهامشه فتح الباري، البخاري، دار المعرفة، بيروت.
٩. الجامع، الترمذي، دار الفكر، ١٩٨٠م.
١٠. الحقيقة بين العلم والدين، عبد الرحمن حبنكه الميداني، ندوة المحاضرات لعام ١٣٩٤هـ، رابطة العالم الإسلامي.
١١. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دار المعارف.
١٢. الدين في مواجهة العلم، وحيد الدين خان، دار الاعتصام، ١٩٧٢م.
١٣. رسالة التعاليم، حسن البناء، مؤسسة الرسالة.
١٤. السنن، أبو داود، مصطفى الحلبي، ١٩٥٢م.
١٥. السنن، ابن ماجة، عيسى الحلبي.
١٦. الصحيح، مسلم بن الحجاج، عيسى الحلبي، ١٩٥٥م.
١٧. طرق تدريس التربية الإسلامية، د.محمد الزحيلي، دار المعارف، ١٩٩٠م.
١٨. فتح الباري، ابن حجر، دار المعرفة.

١٩. الفكر العلمي الإسلامي وإسهامات المسلمين، م.رضي الدين حقي، مجلة الفكر الإسلامي والإبداع العلمي، م٢، عدد ٤.
٢٠. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٧م.
٢١. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الندوي، دار القلم، ١٩٧٤م.
٢٢. مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د.عماد الدين خليل، مكتبة الرسالة ١٩٨٣م.
٢٣. المسند، أحمد بن حنبل، دار الفكر.
٢٤. المغني عن حمل الأسفار، بهامش إحياء علوم الدين، الحافظ العراقي، دار الرشاد الحديثة.
٢٥. المنهج العلمي في الإسلام، د.أحمد سعيدان، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، ١٩٨٥م.
٢٦. موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، الهيتمي، دار الكتب العلمية.
٢٧. موقف الإسلام من الأمية، د.محمد خير عرقسوسي، ندوة المحاضرات لعام ١٣٨٩هـ، رابطة العالم الإسلامي.
٢٨. ندوة ضرورة تحرير الجامعات من رواسب التبعية، د.أحمد العسال و د. راشد المبارك، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ط١، ١٩٧٦م.